الاقدار حتمت عليهم ان يقوموا بدور الوسيط فى جلب البضائع الهندية والصينية وتوصيلها الى اوربا الى ان قدر لأوربا الاتصال مباشرة بالشرق الاقصى فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادي ، وهو لعمري دور لعبه العرب لا بجراة وكفاءة فحسب بل بأمانة تركت اطيب الاثر واعمقه فى نفوس السكان غير المسلمين لمختلف مناطق الهند الساحلية. فهذه الظروف تقرر علينا . كلما وجدنا فى اللغات الاوربية كلمة تتعلق بالملاحة (67) او التجارة على ايدي العرب فى المحيط الهندي ، ان نواصل البحث عن اصلها الهندي بعد ان نهتدي الى شكلها المعرب فى العربية . ولعل فى مقارنة الطرفين الأوربي والهندي ما يكشف لنا بعض ما غمض على المتأخرين من العرب انفسهم فى بعض الاحيان .

فمثلا كلمة (Almanac) لم يشك احد فى انها انتقلت الى اوربا عن العرب لكن حار الباحثون فى الاهتداء الى اصلها فقالوا انه « المناخ » (محيط المحيط ــ ن و خ) او ان العرب الاندلسيين استعاروا كلمة ⵃA ⵃIXIΛ3WYⵃ (68) من المصريين وبدأوا ينطقونها«المناخ» . .(2) الحقيقة ان اصلها « رهمانج » عند ابن ماجد (69) وهو تحريف البحارين لكلمة « الراهنامج » التى جاء عنها فى التاج 51/2 : « فارسية استعملها العرب واصلها « راه نامه » ومعناه ، كتاب الطريق) ... (وهو الكتاب الذى يسلك به الربابنة) ... فى سفر البحر ويهتدون به فى معرفة المراسي وغيرها) كالشعب ونحو ذلك » .

صناعة السيوف وما اليها

(1) الآنك : لقد اصاب ادى شير القول بانها قريبة من « Ranga » بالسنسكريتية (الفارسية : آهك) ؛ والرصاص الابيض معروف الى الآن فى الهند بذلك الاسم ، وهو جزء من كلمة « الاسرنج » ــ لعل اصلها ان يكون « h'sang » (70) الا «سرخ + آنك » كما اورده ادى شير)

اما معدن الرصاص فيقول عنه مسعر بن مهلهل (القرن الرابع الهجري) : « انها (كله) اول بلاد الهند مما يلي الصين ، وانها منتهى مسير المراكب ، ولا يتهيأ لها ان تجاوزها والا غرقت ،

---

(67) لقد صرح المسعودي ، فيما يتعلق بالملاحة ، ان العرب حرصوا على الأخذ بالالفاظ المحلية فى مختلف المناطق التى ترددوا عليها ، انظر الى قوله : « انما نعبر بلغة اهل كل بحر وما يستعملونه فى خطابهم فيما يتعارفونه بينهم » المروج 332/1 (ايضا 343 : « انما نخبر عن عبارة كل بحر وما يستعملونه فى خطابهم » .
ويلاحظ ايضا فى هذا الصدد ان العرب لم يأخذوا الكلمات الهندية من اللغة السنسكرتية الفصيحة ، ولاهم اعتنوا بأشكالها الصحيحة فى الكتابة ، بل انما اخذوها من افواه التجار وسكان المناطق الساحلية التى كانوا يترددون عليها ، ولا يخفى ان تلك المناطق كانت ولا تزال تسودها لهجات متعددة بل لغات مستقلة .

(68) Hob.-Job. - « Almanack »

(69) Ferrand : Instructions Natiques, Tome I ص 60 « رهمانج » ــ 88 « رهمانجات » ــ 76 « رهمانجا » .
واللبس مثل الذى نشاهده فى اول هذه الكلمة كثير شائع فيما يتعلق بالكلمات الاعجمية التى فى اولها حروف تقارب الالف واللام . فكلمة « انجر » (Anchor) مثلا اصلها بالفارسية « لنكر » (القاموس ــ نجر) ، اضاف العرب عليها الالف واللام (ال لنكر) ، ثم التبس عليهم الامر فظنوا ان اللام ليست من الحروف الاصلية (النكر) وقالوا « انجر » ــ وكذلك الرصاص من « ارزيز » (انظر ادى شير) ؛ والماس من « Adamas » (Periplus) ص 224 وانظر بزرك ص 128 « الادماس ») بتمامه كلمة غير عربية والالف واللام من بنية الكلمة ، كذا فى شفاء الغليل واللسان (ماس) عن ابن الاثير ــ وسياتي الآنك من « Ranga »
يلاحظ ايضا انهم كثيرا ما يحذفون الكاف والميم من الاول فى التعريب ، انظر مثلا الرند = كرندة و « انباتي » نسبة الى كنبات و « انبجاني » نسبة الى « منبج » واترج / ترنج تعريب « ما تلنفا » ــ وكذلك الواو يسقط من الاول مثل « النج » من « valgu » وارز من « virizi »

(70) Watt ص 707 .

وبها قلعة يضرب بها السيوف القلعية . وهي الهندية العتيقة لا تكون فى سائر الدنيا الا فى هذه القلعة . . وليس فى جميع الدنيا معدن الرصاص القلعي الا فى هذه القلعة » (71) .

فالنسبة فى «السيوف القلعية» و «الرصاص القلعي » (الفرنسية : Alkalap) الى هذه القلعة بكله (72) وقد شهد الادريسي ايضا بانها المعدن الوحيد للرصاص الابيض بالنسبة الى العالم أجمع فى زمانه ، فانه يقول :

« وبهذه الجزيرة (كله) معدن الرصاص القلعي . وهو بها كثير صافي الجوهر ، والتجار يغشونه بعد خروجه عنها ، ومنها يتجر (يجهز) به الى جميع الارض » (73) .

ثم يظهر ان مثل هذا المعدن نجم فى الاندلس ايضا فيما بعد ، فبدا التجار يتجولون عن الهند اليها ، حتى اذا مضى زمن خلط الناس بين المعدنين كما فى قول ياقوت :

« القلعة فيما زعم مسعر بن المهلهل بلد فى اول بلاد الهند من جهة الصين ، واليه ينسب الرصاص القلعي والسيوف القلعية ، واقليم القلعة من كورة قلبرة بالاندلس ، وانا اظن الرصاص القلعي منسوبا اليها او الى قلعة بالاندلس فانه من هناك يجلب » (74)

ان شهادة مسعر بن المهلهل والادريسي ليست موضع الشك ، وكل ما افادنا ياقوت هو ان الرصاص الابيض كان فى ايامه يجلب من الاندلس بعد ان كان يجلب من القلعة بكله من ذي قبل . ولعل فى الاخذ باسم « القصدير » ــ الذى يرادف الآنك الا انه معرب عن اليونانية ــ ايضا دلالة على التحول المشار اليه من الشرق الى الغرب .

ثم انه يرجح عندي ان المراد ليس « القلعة بكله » بل كلمة « قلعة » هي تعريب « كله » لا غير ، والمعدن المسمى « كله » باللغة المحلية انما كان واقعا على الساحل الغربي لشبه جزيرة ملايو ، وقد ذهب الباحثون الى ان « كله » توازي « Kedah » أو « Kra » الحالية (75) .

ويلاحظ ان اهم ما اشتهرت به سيوف الهند جودة الصقل ، وهو عمل لا يتاتى الا بالآنك الذى استاثرت القلعة بانتاجه ، اما الحديد اللازم لصناعتها فقد اورد الادريسي بشانه ما يلي :

« ان بلاد سفالة (سفالة الزنج أي شرق افريقيا) يوجد فى جبالها معادن الحديد الجيد الكثيرة ، واهل الرانج (الزانج ؟) وغيرهم من ساكني الجزائر المطيفة لهم يدخلون اليهم ويخرجونه من عندهم الى سائر بلاد السند وجزائره فيبيعونه بالثمن الجيد ، لان بلاد السند اكثر تصرفهم وتجاراتهم بالحديد ، ومع ذلك وان كان الحديد موجودا فى بلاد الهند ومعادنه بها ففى بلاد سفالة هو اكثر واطيب وارطب ، لكن الهنديين يحسنون صنعته وتركيب اخلاط الادوية التى يسبكون بها الحديد اللين فيعود هنديا منسوبا الى الهند ، وبها ديار الضرب للسيوف وصناعهم يجيدونها فضلا عن غيرهم من الامم ، وكذلك الحديد السبتي (كذا وفى نسخة اخرى: السندي) والسرنديبي والبينماني كلها تتفاضل بحسب هواء المكان وجودة الصنعة واحكام السبك والضرب وحسن الصقل والجلاء ، ولا يوجد شيء من الحديد امضى من الحديد الهندي، وهذا شيء مشهور لا يقدر احد على انكار فضيلته » (76)

هذا وقد كانت البيلمان (البينمان) مركزا آخر هاما لصناعة السيوف تنسب اليه السيوف البيلمانية ، وكانت تقع على ملتقى حدود السند والهند كما يتضح مما ورد فى شأنها فى فتوح البلدان للبلاذري ص 440 و 442 ، اما القول بانه « يشبه ان يكون (البينمان) من ارض اليمن » (انظر البلدان لياقوت والقاموس « ب ل م ») فلا يقوم على سند .

---

(71) القزويني 69 وياقوت « القلعة » و « الصين ».
(72) المعرب للجواليقي ، تحقيق احمد محمد شاكر ــ ص 276 .
(73) دار الكتب المصرية ، جغرافيا رقم 150 ص 130 .
(74) المشترك والمفترق 357 .
(75) انظر دائرة المعارف الاسلامية « Kalah » و « Kal'i » .
(76) ص 108 ــ 109 . قارن ابن الوردي ، القاهرة 1328 هـ، ص 51 .

الرمـــــــاح

تلك هي قصة السيوف التي لم تزل تحمل نسبتها الى الهند كشعار لجودة الصنعة وحسن الصقل ، ولننتقل الآن الى الحديث عن الرماح التي طويت نسبتها الى الهند على مر الزمان . الا انه يمكننا اذا امعنا النظر ان نستشفها من وراء كلمات لا تزال تحمل سمات الغرابة والغربة مع انها كثيرا ما عدت عربية لا لشيء الا لعدم الاهتداء الى اصلها .

يتكون الرمح من جزئين : الاول هو النصل او السنان ، والثاني هو القناة . وغني عن البيان ان صناعة السنان متجانسة مع صناعة السيوف بل هما صناعة واحدة ، وعلى هذا يصبح من الطبيعي ان يغلب الظن بأن العرب ربما استعملوا الأسنة المصنوعة في الهند الا انه لا يعدمنا من الدليل الايجابي ما يرتفع بهذا الظن الى درجة اليقين ، فاننا نراهم يستعينون ببعض الكلمات الهندية للتعبيرات الدقيقة المتعلقة بهذه الصناعة . انظر الى كلمة « الخرص » تبدو كأنها دخيلة على مادة « خ ر ص » العربية . فالخرص تعني الجزء الاعلى الذي فيه الحد من السنان ، وهي بهذا المعنى توازي كلمة « Kirch » بمليالم (Malayalam) احدى اللغات الدكنية ـ والاردوية ايضا ، ولعل اصلها في لغة جاوة وملايو « Kris, Kiris, Kres » (77) ـ وربما اطلقت الكلمة على القضيب والرمح نفسه كما قال حميد وابن ثور : « عض الثقاف الخرص الخطيا » (78) ولا يخفى ان هذه النسبة الى الخط هي اقوى ما يؤيد الاصل الهندي للرماح المنسوبة اليها لان الخط لم تكن الا مرفأ للسفن الواردة من الهند كما سنبين ذلك بالتفصيل فيما بعد .

اما الجزء الثاني ، وهو بلا شك اهم الجزئين فقد كان العرب شديدي الاهتمام بالقنا والانتقاء لها حتى ان الشعر العربي يزخر بأوصافها ونعوتها الا ان كثرة استعمال العرب للاسماء المختلفة للقناة وما يتبعها وجريها على السنتهم مجرى الكلمات العربية في الاشتقاق وما الى ذلك جعلا اصل تلك الاسماء نسيا منسيا . هذا مع انه قد ثبت بصورة قاطعة لا يتطرق اليها اي شك أن منبت القنا الذي كان العرب يعتمدون عليها لسد حاجتهم ـ وما اكثر تلك الحاجة ـ لم يكن غير الهند كما سنبين ذلك آنفا بعد ان نسوق بعض المقدمات ونتعرض لبعض الملابسات التي لا بد منها نظرا الى غموض الموضوع.

أولا : القنا = قصب السكر . لا يخفى ان اطلاق القنا على هذا المعنى انما هو على سبيل التبعية والمجاز . وان كان ذلك مطابقا للمألوف في اللغة السنسكرتية وبعض اللغات الهندية الاخرى . وعلى كل حال فالمرجح عند العلماء هو ان موطن قصب السكر الاصلي لا يتجاوز ما بين بنغالة والهند الصينية (79) والدليل على ذلك ان جميع منتجات قصب السكر اشتهرت في العالم بأسمائها الهندية وهاكها فيما يلي :

1 ـ Candy = الفارسية والعربية « قند » = سنس « Khanda » ومليالم « Kandi » (79) .

2 ـ العربية « فانيذ » = الفارسية « بانيد » = سنس « Phanita » ـ قارن « Penidium » Med. Lat, وقد ذكر ابن حوقل والبشاري الفانيذ من اهم الصادرات من مدن السند: فنجبور ومولتان وطوران.

3 ـ Sugar = العربية « سكر » = الفارسية « شكر » = البراكرتية « Sakkara » / سنس « Sarkara » .

ومن الطريف في هذا الضدد ان الهنود ، وان كانوا اول من قام بانتاج السكر ، سرعان ما بداوا يستوردونه من الصين ومن مصر ، وذلك لان الصينيين والعرب ، الذين نقلوا زراعة قصب السكر من الهند الى الصين والى مصر (ثم الى صقلية والاندلس) ، لم يلبثوا ان سبقوا الهنود في ابتكار وسائل جديدة للتكرير ، ففاق الصينيون في صنع سكر ناصع البياض بشكل قطع صغيرة ، كما ان المصريين اختصوا بصنعه بشكل قطع كبيرة ، ولم تزل الهند تستورد ذينك الصنفين من السكر من

---

(77) Hob.-Job. - « Crease, Cris »

(78) اللسان 8 / 287 .

(79) Hob.-Job. - « Candy »

الصين ومن مصر الى مطلع القرن الماضي حتى انهما يعرفان الى الآن في اسواق الهند باسم « صيني » و « مصري » على الترتيب (80) .

ثانيا : القنا بمعنى الرمح . يلاحظ في هذا الصدد ان هناك شيئا يشبه السكر كثيرا ما يتكون داخل القنا (Bamboo Sugar) يسمى عند العرب والفرس « الطباشير » وكان استعماله كدواء شائعا جدا في العصور الوسطى ؛ ومن المتفق عليه أن كلمة انطباشير انما هي منقولة عن سنس « Trakkshira » اي انها هندية الاصل (81) .

ثم ان الخيزران يصفه العرب انفسهم بانه شجر هندي وهو عروق القناة (انظر الصحاح والتاج « خزر ») أفلا يكون القنا اذن شجرا هنديا ؟ والخيزران الهندي (82) هو الذي يتمثل به في

(80) Hobson-Jobson - « Sugar »

ومما يشهد ببراعة المصريين في هذا المضمار القطعة التالية منقولة عن ماركو بولو : (Ramusio II, 44)

« And before this city » (a place near Fu-chau) « came under the great Can these people knew not how to make fine sugar ; they only used to boil and skim the juice, which when cold, left a black paste. But after they came under the Great Can some men of Babylonia » (i.e., of Cairo) « who happaned to be at the court proceeded to this city and taught the people to refine the sugar with the ashes of certain trees » - 1298 A.D.

ومجلة « اللسان العربي » تلاحظ ما يلي :

كان السكر يصنع في شقي العروبة بافريقيا : المغرب ومصر وقد حدثنا المقريزي انه كان بسمهود سبعة عشر حجرا لعصر القصب كما كان بعلوى عدة احجار (الخطط ج 1 ص 203) وكذلك في قابس وجلولا (البكرى في المسالك جزء افريقية والمغرب ص 17 و 32) .

وقد اكد ماس لاطري Latrie ان المغرب كان يصدر السكر في القرن الثالث عشر الميلادي الى الفلاند والبندقية (علائق وتجارة افريقيا الشمالية ص376) وقد نبه الحسن بن محمد الوزان المعروف بـ Léon l'Africain على وجود السكر بسوس قبل السعديين ولكن الشرفاء السعديين هم الذين جلبوا اساليب تصفية هذا السكر وتبييضه في معاصر ساهم الاسرى المسيحيون في تأسيسها بأكادير وخاصة ، سكساوة وشيشاوة (مستندات دوكاستر ج 1 ص 303) .

ويوجد نص رسالة موجهة من مولاي محمد بن عبد الغالب ـ المسلوخ ـ عن اذن والده الى ملك فرنسا مؤرخة من قصر الدار البيضاء (فاس الجديد) في رجب 968 (مارس 1561 م) حول استعداد المغرب للسماح للملك شارل التاسع باحتكار سكر المغرب بشرط دفع ثمنه بالسعر المغربي مع زيادة نسبة في المائة وكذلك اصدار النحاس المغربي لفرنسا طبقا لرغبة ملكها بشرط دفع ثمنه سلاحا وعتادا (السلسلة الاولى ـ السعديون ج 3 ص 746) .

ولما عجز الاوربيون المجلوبون لعصر قصب السكر في معمل أكدال بمراكش وتصفيته واخراجه من القوة الى الفعل عن اتمام عمليتهم جلب محمد بن عبد الرحمن الصناع المهرة من مصر القاهرة (الاتحاف لابن زيدان ج 3 ص 556) .

واسس مولاي الحسن عام 1878 مصنعا للسكر بمراكش وكلفه ذاك نفقات باهظة. ولكن هذا المصنع احيل بعد سنوات الى مدبغة للجلود (كامبو ص 59).

وقد كان البلاطان الفرنسي والانجليزي يتنافسان في القرون الاخيرة على اقتناء السكر المغربي المكرر لصفائه وجودته .

(المعجم التاريخي للاستاذ عبد العزيز بنعبد الله ص 38) .

(81) Hob.-Job. - « Tabasheer »

(82) لقد عرف العرب ان بلاد الروم كانت تمتاز بمنابت الخيزران كما يقول النابغة الجعدي : « بلادهم بلاد الخيزران » (انظر اللسان ـ خزر) الا انه من المحقق انهم كانوا يجلبونه من الهند ويتمثلون بالهندي منه في شدة اللين . كذا في محيط المحيط ـ خزر . وقد أورد القزويني في الآثار ص 38 عن كله : « بها منابت الخيزران منها يحمل الى سائر البلاد » .

(×) وقد كان اهل Magan اي عمان يستوردون الاخشاب من نفس هذه المنطقة وذلك اربعة آلاف سنة قبل المسيح ـ انظر : Wilson : The Persian Gulf, p. 27

شدة اللين ومنه قولهم : الخيزرى والخوزرى والخيزلى = مشية فيها تفكك .

وربما اقترن اسم القنا بالقسط ما عدا الخيزران عند الربابنة والجغرافيين العرب كما سنرى ، ومن المسلم به ان القسط او الكسط هندي بحت (سنس « Kustha ») وانما نسبوه في بعض الاحيان الى ظفار باليمن لانه كان يجلب اليه من الهند ، القاموس « ظفر ») .

ولنبحث الآن عن المواضع التي كان العرب يترددون عليها لجلب القنا منها . نجد انها لا تتجاوز ساحل السند والساحل الغربي والجنوبي لمنطقة الدكن بالهند (*) : فهذا قول ابن خرداذبه 62 : « ومن السند يجيء القسط والقنا والخيزران » ويقول ايضا : « ومن مهران الى اوتكين وهي اول ارض الهند مسيرة اربعة ايام ، وفي هذه الارض ينبت القنا في جبالها والزرع في اوديتها واهلها عتاة مردة لصوص » ـ كذلك يقول ابن الفقيه 251 : « خص الله بلاد السند والهند ب ... القنى والخيزران ... » ـ وهذه شهادة مسعر بن مهلهل يقول : « وخرجت الى سواحل البحر الهندي متياسرا فسرت الى بلد يعرف بمدورقين منابت غياض القنا وشجر الصندل ومنه يحمل الطباشير وذلك ان القنا اذا جف وهبت عليه الريح احتك بعضه ببعض واشتدت في الحرارة الحركة فانقدحت منه نار فربما احرقت منه مسافة خمسين فرسخا او اكثر من ذلك ، فالطباشير الذي يحمل الى سائر الدنيا من ذلك القنا . فاما الطباشير الجيد الذي يساوي مثقاله مائة مثقال او اكثر فهو شيء يخرج من جوف القنا اذا هزت وهو عزيز جدا ... » ثم يقول عن مدينة كولم ايضا : « والخيزران والقنا بها كثير جدا » (انظر ياقوت « الصين ») . كذلك يقول الادريسي : « ومدينة تانة (بالقرب من بومباي (جليلة ... وبجبالها وارضها ينبت القنا والطباشير يتخذ فيها من اصول القنا ومنها يحمل الى سائر البلاد من المشارق والمغارب » ـ ص 297.

وبعد ان تفقدنا منابت القناوجب علينا ان نقتفي آثار نواخذة العرب لنرى اين تفرغ سفنهم حمولتها وهاك ما يقوله ابن سيده (المخصص 34/6) عن « الرماح الخطية » اشهر الرماح عند العرب : (الخط مرفأ السفن بالبحرين (*) ينسب اليها الرماح وليست الخط بمنبت لها ولكنها مرفأ السفن التي تحمل القنا من الهند كما قالوا مسك دارين (*) وليس هناك مسك ولكنها مرفأ السفن التي تحمل المسك من الهند) .

ترى كيف ان القناة المجلوبة من منابتها بالهند والتي ركب عليها خرص او سنان مصنوع في مصانع السيوف حول معادن الرصاص القلعي بالهند ، كيف ان هذه القناة هي التي تصبح « رمحا خطيا » بمجرد دخولها حدود جزيرة العرب ؟

السمهري :

والحديث عن « الخطي » يذكرنا على الفور بـ « السمهري » و « الرديني » . لو رجع احد الى اللغويين واصحاب المعاجم لوجدهم يقولون ان السمهري نسبة الى سمهر والرديني نسبة الى رديئة وهما زوجان كانا يقومان ببيع الرماح بالخط، ولكن المتتبع للشعر العربي والمتأمل في اقوال اللغويين واصحاب المعاجم انفسهم لا يلبث ان يتبين ان السمهري يغاير الرديني تماما من حيث الصفات المنسوبة الى كل منهما ، فالسمهري يمتاز بصفتين هما : ـ 1 ـ الاعتدال ، ـ 2 ـ الصلابة ، اما الرديني فيتميز بضد الصلابة وهو اللدونة لانه هو الذي يهتز دون السمهري . وعلى هذا فيا له من تحديد الاختصاص بحيث يمارس الزوج والزوجة بيع رماح من نوعين مختلفين ـ ولعل المفروض انهما كانا يتخذان محليهما جنبا الى جنب في سوق الخط ـ بدون ان يطغى الواحد منهما على الآخر ! ويا لها من مراعاة للمناسبات والصلاحيات بحيث يكون بيع الرماح الصلبة من حصة الزوج وبيع الرماح اللدنة من نصيب الزوجة !! ومما يزيد اقوالهم ارتباكا كما يزيدنا ارتيابا ان احدا منهم على الاقل ـ وهو الزبير بن بكار ـ ذهب الى ان سمهر كانت قرية بالحبشة (انظر التاج حيث جاء ان الصاغاني انكر هذا القول ، كما ان بعضهم قال ان سمهر اسم امراة كانت تقوم الرماح !!!

(*) ذكر Pliny اسم موضع Chateni يقع على سواحل الخليج هو الخط ولا شك ، (الدكتور جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام 309/2) .

(*) Daden/Dirin = البحرين او جزيرة بالقرب منها ـ (Heeren, II, 230)

ان المهم في هذا كله هو ان الزوجين ، على حد تعبير اللغويين ، كانا يبيعان الرماح بالخط والخـــط ، كما راينا آنفا ، لم تكن الا مرفأ للسفن الواردة من الهند ، اذن فمن المؤكد أن السمهريات والردينيـات كانت رماحا هندية ، هذا بغض النظر عن من قـام بأعمال بيعها او توزيعها في الخط . افيستغرب بعد هذا أن يكون التجار العرب قد اخذوا اسمى الصنفين من الرماح ــ الصلب واللدن ــ من افـواه التجـار الهنود ؟ ان مثل هذا القياس يوافق مقتضى طبيعـة المعاملات التجارية كما انه يصادف حرص العرب على تسمية الاشياء والبضائـع التجاريـة بأسمائهـا المحلية . فربما يكون سمهر اسما هنديا جاء به العرب مع مسماه (اي الرماح الممتازة بالاعتدال والصلابة) الى الخط وطبعا خفي امـره على النـاس لكونه غير عربي ، فلذلك لم يفقهوا غير انه انتشر بين العرب عن طريق ذلك المرفأ بالبحرين (83) .

ولعل القاريء الأريب يتبيـن في قول ياقـوت الآتي تأييدا لجميع ما قدمنا آنفا . يقـول ياقـوت : « سمهر قرات بخط ابي الفضل بن العباس بن على الصولي المعروف بابن برد الخيار ... قال حدثنـي سليمان المدائني قال حدثنـي الزبيـر بن بكار قال الرماح السمهرية نسبت الى قرية يقال لها سمهـر بالحبشة ... قلت انا وحدثني بعض من يوثق به ان هذه القرية في جزر من النيل (الآثار للقزوينـي ص 30 « جوف النيل ») يأتي من ارض الهند على راس الماء كثير من القنا فيجمعـه اهـل هـذه القريـة ويستوقدون زواله ويبيعون جيـده وهـو معـروف بأرض الحبشة مشهور ــ وقول من قال ان سمهـر اسم امراة كانت تقوم بعمل الرمـاح فانه كلـف من القول وتخمين (*) » .

الـرديـنـي :

لكن انتفاء شخصية سمهر يستلزم ايضا عدم بقاء ردينة كأرمالة تخير في خطابها من يخلف في بيع الرماح الصلبة ، الا ان تلك مسألة لا تستدعـي كبير عناء بعد أن حطمنا الاغـلال التي كانت تقيـد فكرنـا . كفانـا ان ننظـر الـى كلمـة « Rattan » بالانجليزية هي اسم لنوع معين من الخيزران غايـة في المتانة والجودة وتمتاز قناته اكثـر من اي شيء آخر بالمرونة واللدونة ، انظر « Rattan » - (Hob.-Job. ومما لا يشك فيه ان هذه الكلمة بالانجليزية منقولة عن « Rotan » بلغة ملايو والهند الشرقية . افهل يستبعد ان تكون (ردينة) الحلقة الوسطـى بيـن « Rotan » من جهة و « Rattan » مـن جهـة اخرى ليس الا ؟

القـنـــا :

لقد آن لنا ان ندون بعض الملاحظات عن اصل كلمة «القنا» . اننا راينا ان العرب ، مع كثرة وصفهم للرماح ، لم يذكروا اي منبت للقنا في ديارهـم . بل بالعكس اجمعت الادلة كلها على انهم كانوا يعتمدون على منابت القنا بالهند ، ولا يفوتنا في هذا المقام ان نذكر ما اورده الجاحظ (البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون 16/3) من ان الشعوبية طعنوا في العرب بقولهم : « انما كانت رماحكـم من مران واسنتكم من قرون البقر ... » ــ لعل مفزى هـذا المطعن لا يعدو ان العرب لم يجـدوا في ديارهـم ما يمكنهم من صنع الرماح بجزئيها القناة والسنان ــ واخيرا يجب علينا ان لا نغفل اعتبار الاحوال الطبيعية اللازمة لنمو القنا وهي تنحصر في سفـوح جـبال تهطل عليها السماء مـدرارا ثلاثة او اربعـة اشهـر متتالية في السنة . افيوجد مثل هذه الاحـوال في جزيرة العرب او شرقيها وغربيـها الا في السنـد والدكن اي الساحل الغربي والجنوبي للهند ؟ ويخيل الي ان قول الزبير بن بكار السالـف الذكـر (بأن سمهر كانت قرية بالحبشة) يخفـي وراءه حقيقـة ثابتة وهي ان العرب في وقت من الاوقات اتخـذوا من الحبشة بديلا من الهند ، مرجعهم المفضـل ،

---

(83) لم استطع الجزم بالاصل الهندي الا انه لفت نظري الكلمتان التاليتـان المعبرتـان عن الاعتـدال والصلابـة : SAMA, even, level... straight - Williams : Sanskrit-English Dictionary, p. 1066. KHARA, hard, harsh, rough... dense - Ibid., p. 74

(*) هذا ونجد مثالا آخر لهذه الاسطورة بالذات فيما يتعلق بكلمة « السندرة » (انظر ص 68 الآتية) وقد ادرك القتيبي ان القول « السندرة امراة كانت تبيع القمح وتوفي الكيل » مجازفة لجأ اليها الذين وقفوا حيارى امام كلمة اعجمية الفـوا استعمالها وعرفوا مدلولها لكن لم يدروا ما اصلها .

ولا ننسى كيف ان ياقوت خلط بين كلمه « القلعة » وبين معدن القصدير بالاندلس لاسباب متشابهة (*)

اذن اصل كلمة « قنا » نفسها معربة من الهندية « ganna » البراكرتية « gandoo » السنسكرتية « gandaka » (*)

الوشيج :

اذا كان « الخطي » هنديا فهل من الغريب ان يكون « الوشيج » ـ الذي لا ينبت الخطي الا هو ـ هنديا ايضا ؟ ان اصل هذه الكلمة هو (Vansha) والجيم في الآخر علامة العجمة لا غير . وقد عهدنا العرب دائما يظهرون ملكة قوية للملاحظة الطبيعة بالدقة والاتقان وان كلمة الوشيج وما اشتق العرب منها الا دليل على التأثر بالطبيعة واستخلاص المعاني العامة من مظاهرها فان كل من اتفق له أن يتمتع بنظرة الى منبت القنا ليقدر تمام التقدير ان أهم ما يروع المرء من أشجاره هو التفاف سيقانها وتعانق أغصانها ، ومنه قولهم الوشيج بمعنى القرابة ، والوشج بمعنى الاشتباك . واذا كان احد في شك من هذا فلينظر الى كلمة « البيش » (84) لا ريب في انها هندية معربة اصلها (Visha/Bisa) استخلص العرب من شجرته معنى الخضرة والنضارة فقالوا « بيش الله وجهه » ولاحظوا ايضا ان شجرة البيش شديدة الثبات والتأصل فقالوا « اباش الشجرة » .

القسي

اما فيما يتعلق بالقسي ، فقد كفانا الجاحظ مؤنة البحث عن اصلها بقوله: «وكل قوس بندق فانما جيء بقناتها من بروص ومدح ببريها وصنعتها عصفور القواس . وقال الرقاشي :

انعت قوسا نعت ذي انتقاء
جاء بها جالب بروصاء

بعد اعتيام منه وانتصاء
كافية الطول على انتهاء
مجلوزة الأكعب في استواء
سالمة من آبن السيساء

(البيان والتبيين 3/93 ـ 94)

وانظر ايضا الى قول آخر للرقاشي في صفة القناة التي تبرى منها القسي :

من شقق خضر بروصيات
صفر اللحاء وخلوقيات

جدلن حتى اضن كالحيات
رشائقا غير مؤبنات

انفهن متمطرات
عمرو بن عصفور (85) على استثبات

(المصدر نفسه 3 / 71)

لا يخفى ان بروص (كما وردت الكلمة مضبوطة في القطعة الثانية والتي جعلها الشاعر « بروصاء » ـ « بروضاء » بالضاد المعجمة تحريف من الكاتب ليس الا ـ في القطعة الاولى لضرورة الشعر) كانت ميناء هاما على ساحل كجرات فوق بمباي حاول العرب عدة مرات ، قبل فتحهم للسند وابان حكمهم لها ، الاستيلاء عليها (راجع فتوح البلدان للبلاذري) وهي لا تزال مدينة معروفة باسمها القديم « Bharoch »

والشريج بمعنى العود يشق منه قوسان (انظر قول الشماخ : « شرائج النبع براها القواس ») هي « chari » بالجيم علامة العجمة بآخرها . ومنه يقال لخطى نيري البرد شريجان .

(*) انظر ص 34 السابقة .

(*) Nainar, S. Muhammad Husayn : Arab Geographers' Knowledge of Southern India, Madras, 1942,p. 193, note 29, vide Platts : Hindustani Dictionary.

(84) « البيش وهو نبت لا يوجد الا بالهند » كذا في الآثار للقزويني ص 85 .

(85) لو كان سمهر مثقفا للرماح أو بياعا لها لكان من الواجب ان نظفر من شاعر من الشعراء القدماء باشارة صريحة الى ذلك مثل ما نجد امامنا بخصوص عمرو بن عصفور ، ولكنا بخلاف ذلك نراهم، حسبما اعرف ، دائما يذكرون « السمهرية » و « الردينية » و « رماح ردينة » (الشماخ ، ديوانه ص 98) من غير ان يزيدوا شيئا ثم يجيء اللغويون فيفسرون هذه النسبة كما بدا لهم بدون أي سند على نحو ما فصلنا الكلام عنه .